

البعد الاجتماعي في مواقف الرسول ﷺ

د. عماد الدين خليل ★

طرح الرسول (ص) قيم العدل الاجتماعي ومبادئه وخطوطه العريضة على مستويات ثلاثة ، في اولها قدم لنا مبادئ ونظريات وقواعد يمكن ان يبني المشرع الاسلامي عليها - كما حدث فعلا - عمارات فقهية شامخة في ميدان العدل الاجتماعي ، مستمدا قدرته على العمل من روح هذه المبادئ والنظريات والقواعد ، مهندسا اجتهاداته وفق مساراتها واتجاهاتها .

وفي ثانيها نفذ الرسول (ص) بعض التجارب واجرى عددا من التغييرات والممارسات على المستوى الجماعي فجاء هذا (التنفيذ) الواقعي امتدادا للمبادئ والنظريات المطروحة على لسانه (ص) وتأكيدا - في الوقت نفسه - على ان الاسلام ما جاء لكي يطرح افكارا خيالية ومثلا معلقة في سماء الاحلام ، وانما لكي (يغير) شكل الواقع (ويبدل) في

★ استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الموصل ، ومؤلف عدة كتب مشهورة .

احجامه المتوارثة ويحول علاقاته لصالح الانسان . وانه بواقعيته هذه
قدير على ان يتحرك - دوماً - في عهد الرسول وصحابته وتابعيه والمنتمين
الى دعوته جيلاً بعد جيل . كما حدث فعلاً . من اجل احداث هذا التغيير
والتبديل والتحويل .

اما على المستوى الثالث فقد نفذ الرسول (ص) - باعتباره القائد
الاعلى للجماعة الاسلامية واسوتها الحسنة على مر الاجيال - نفذ
(اخلاقية) العدل الاجتماعي التي تنبعث من الاعماق وتؤول الى ممارسة
وسلوك وعمل تتبدى ملامحها في كل جزئية من جزئيات الحياة اليومية
وكل منعطف من منعطفاتها . ابتداء بمسألة السكنى والملبس والطعام
والشراب داخل بيته وانتهاء بطبيعة علاقاته كنبي وقائد مع ابناء امته .
فأعطى بذلك الاشارة الحاسمة لكل الذين سيجيئون بعده فتحملهم الاحداث
او الجماهير الى مراكز السلطة . وأشعل الضوء الذي على هديه سار
خلفاؤه الراشدون . حكام العالم . وهم يتضورون جوعاً . وينامون على
الحصى . ويأكلون الخل والزيت ويلبسون قمصانا مرقوعة لم يتجاوز
سعر احداها - يوما - اربعة دراهم او خمسة . ولقد ظل الضوء النبوي
- وسيظل - رغم انطفاء العصر الراشدي مشعلاً لكي يبين لكل الواصلين
الى السلطة من المؤمنين الحقيقيين معالم الطريق . وليس انقلاب عمر بن
عبدالعزیز - خليفة نصف العالم - وتحوله الذاتي الاخلاقي العظيم . اثر
تسلمه السلطة . سوى مثل من الامثال .

على هذه المستويات الثلاثة المتداخلة . المترابطة كحلقة متماسكة لا
تدري اولها من اخرها طرح الرسول (ص) قيم العدل الاجتماعي ومبادئه
وخطوطه العريضة . وكان هذا يعني - في التحليل السلبي من جهة اخرى -
ان افتقاد وتحطم اي رأس من رؤوس هذا المثلث ذي الزوايا المتناظرة .
سيعرض التجربة لضربة قاصمة . وسيفكك اضلاع المثلث ويتيح للقوى
المضادة (من انتهازيين ووصوليين وانصاف مؤمنين وأرياب مال ومنافع .

ومتطرفين ومنافقين وطواغيت) ٠ - كما حدث ويحدث بالنسبة لكثير من التجارب الاجتماعية ان تتسلل افواجا لكي تقبع هناك ٠ وماذا يبقى من المفهوم الاسلامي للعدل وقد آل الامر الى ان يملا هؤلاء مساحات المثلث ذي الاضلاع المفككة ؟ ومن ثم كان لنا ان ندرك مدى خطورة هذا الارتباط العضوي ، ليس في الاسلام فحسب بل في كل المذاهب ، بين نظرية تطرح وتجربة تنفذ واخلاقية تحمي النظرية والتجربة من التحوير والاستغلال والتزوير وتلتزم بصرامة ، اسلوبا في التعامل مع الذات ومع الاخرين وهي في قمة السلطة ، ليس كذلك الذي تمارسه وهي في القاعدة ! !

واذا لم تكن تجربة العدل الاجتماعي في الاسلام قد نفذت وبرزت بأطرافها جميعا ، في فترات طويلة من تاريخنا ، واذا كان بعض المتسلطين قد جرفتهم الاحداث الى مواقع السلطة دون ان يفعلوا شيئا في هذا الميدان ، بل دون ان يوقفوا التيار المضاد عن تدفقه وتضخمه اكثر من هذا ، راحوا هم انفسهم والمحيطون بهم يعملون ، في الاتجاه الاخر المعاكس فيزدادوا ترفا وتخمة وطفيانا بينما تزداد - في الجهة المقابلة - ازمة الجوع والفقر والمسغبة بين جماهير امتهم ٠ اذا ما حدث هذا وذاك فانه ليس عيبا او خلا في نظام الاسلام ذاته وفي برامج الاجتماعية ، انما هي الارادة والوعي البشريان اللازمان دائما لحماية المبادئ من التجميد والانحراف او التسلل والاستغلال ٠ وما اكثر المتسللين والمنفعيين والوصوليين والمنافقين الذين مارسوا السلطة في مستوياتها العليا واثروا وامتلكوا واتفروا عبر التجارب الاجتماعية المختلفة ، وما اطول المدى الذي اجتازته مجتمعات الغرب الرأسمالية التي بلغ فيها التناقض حده الاقصى ، فتحتم على الديالكتيك ان يمارس دوره ويدفع البروليتاريا الى الثورة واستلام السلطة ، دون ان يحدث ما يوحي بقرب اليوم الموعود ! ! ومرة اخرى : الوعي والارادة البشرية المدعمة بالايمان هما اللتان تصنعان الاحداث وتصوغان حركة التاريخ وتحميان المبادئ والتجارب من التجميد والتزوير

والتزييف والاستغلال ولا شيء وراء ذلك مما يقال انه حتميات التاريخ!! ولنا بعد ذلك ان نعرض بايجاز تام لكل من هذه المستويات الثلاثة التي طرحها ونفذها رسول الاسلام (ص) مقتطعين منها نماذج فحسب ، اذ يصعب الحصر في بحث موجز كهذا ، مركزين على المبادئ متجاوزين التفاصيل والجزئيات .

اولا - المبادئ والقواعد والنظريات :

يطرح الرسول (ص) مبادئ متفاوتة الدرجات ازاء (المال) و(حق الجماعة) ويسلط الضوء على المسألة الاجتماعية من زواياها وأطرافها كافة لكي لا تتبقى منها اية مساحة غارقة في العممة وهو في هذا كله انما يساير القرآن جنبا الى جنب ، يؤكد آياته البينات ويعززها ويوضحها . انه (ص) يتحدث عن العمل والاجر والارض والزراعة ، وعن طبيعة العلاقات المتينة العميقة التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم الواحد وتجعلهم كالبنيان لا يسمحون لاي منهم ان يسلم او يظلم . . وعن المسؤولية الاجتماعية التي تحتم على كل فرد ان يعرف مواطن الحق والواجب والا عصفت بهم العراف . ويقف طويلا عند الثروة ويبين في اكثر من موضع انها ليست هدفا ولا يجب ان تكون كذلك ، والا قادت عبيدها ومستخدميه الى الدمار ، وكيف ان الموقف الصائب فسي التعامل معها يضعه فسي موضعها المناسب من فاعليات الانسان على الارض ، كوسيلة تحمله والجماعة معه الى ابعد الافاق . . وكيف ان حق الجماعة في المال يتدرج ابتداء من (الزكاة) حده الأدنى ، صعودا صوب القمة التي تغدو فيها مشتركة في هذا المال الزائد عن حاجة صاحبه ، وما وراء ذلك هو ما عبر عنه الرسول (ص) بقوله « ما يسرني ان عندي مثل أحد هذا ذهباً ، اموت وعندي منه دينار ، الا ان اقول به في عباد الله هكذا وهكذا »

وهكذا..» وطوح بيديه يميناً وشمالاً وخلفاً . وسنرى في المقطع الأخير من هذا البحث كيف مات رسول الله (ص) وليس عنده دينار واحد !! يتحدث الرسول (ص) عن (العمل) باعتباره الأساس الذي يوليه الإسلام الأهمية الكبرى ، والذي تتمخض عنه ابتداء (القيمة) التي يتضمنها المال والمنفعة المترتبة عليه ، ويجب أن نلاحظ هنا كيف أن القرآن الكريم يورد العمل بتصريفاته المختلفة وأبعاده الجزئية والشاملة ، المادية والأخلاقية ، الدنيوية والأخروية فيما يزيد عن ثلاثمائة وخمسين موضعاً ، ويسعى (ص) إلى أن يدرأ بحض اتباعه على العمل ظواهر التبطل والكسل والتواكل والاستجداء التي تتناقض أساساً مع متطلبات العدل الاجتماعي وصورة المجتمع الذي يسوده التوازن الفعال .

قال : « والذي نفسي بيده لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، اعطاه أو منعه » وقال « ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده » ، وقال « على كل مسلم صدقة » قالوا : يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة . المهم هو أن يعمل الإنسان المسلم ، وأن يكون إيجابياً ، فإذا عجز عن تفجير طاقاته في بعض مساحات النشاط البشري ، فإن هناك مساحات أخرى غيرها .

ومن أجل تأكيد هذه الفكرة في العطاء الاجتماعي قال ، فيما نقله لنا حكيم بن حزام « سألت رسول الله فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » وقال « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »

وقال « العمل عبادة » و « طلب كسب الحلال فريضة » و « طلب الحلال جهاد » و « من امسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له يوم القيامة » وقال « ان اشرف الكسب كسب الرجل من يده » . وقبل يدا ورمت من كثرة العمل وقال « هذه يد يحبها الله ورسوله » وقال « ان الله يحب العبد المؤمن المحترف » .

ومرة اخرى يعود الى ايجابية العمل في الحياة الاسلامية ويفضله على « سكون » العبادة فيقول « لئن يمشي احدكم مع اخيه في قضاء حاجته افضل من ان يعتكف في مسجدي هذا شهرين » . ويبلغ من تقيمه للعمل وتقديره للعطاء وادراكه العميق للدور الذي يلعبه على المستوى الاجتماعي خاصة والحضاري عامة ان قال « اذا قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فاستطاع الا تقوم حتى يفرسها فليفرسها فله بذلك اجر » . ويؤكد رسول الله «ص» وهو يتحدث عن العمل على «حق» الاجير والعامل ، هذا الحق الصارم الذي يجب ان يعطاه لحظة توقفه عن العمل جزاء وفاقا على ما قدمت يداه . فيأمر اصحابه « اعطوا الاجير حقه قبل ان يجف عرقه » ، ويصب غضبه الشديد ويعرب عن خصومته القاطعة لكل من يستأجر اجيرا فيأكل حقه : « ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة : رجل اعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا ثم اكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه فلم يعطه اجره » .

ولم يترك رسول الله «ص» مسألة من اهم مسائل العمل ، تلك هي تكليف العامل او الاجير بذل جهد اكبر من ذلك الذي تم الاتفاق عليه ، او قضاء ساعات اطول في العمل او انجاز قطع اكثر من المتفق عليها ، وضرورة ضمان هذه الزيادة في الجهد الذي تنبثق عنه قيمة اكبر لصاحب العمل . كما انه لم يترك مسألة العلاقات الانسانية التي يجب ان تسود بين الطرفين : العامل وصاحب العمل ، في اي نشاط اجتماعي ، ويتقدم بها «ص» صعدا حتى يضعها في مرحلة الاخوة الكاملة حيث يأمر اصحابه

حينذاك : عمالا واصحاب عمل ، ان يأكلوا سويا ويلبسوا سويا . . يقول
« . . اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت ايديكم . فمن كان اخوه تحت
يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فان كلفتموهم
فأعينوهم » وليس ثمة نظام تعرض فيه مسألة « العمل » وفق هذا المثلث
الصارم : منح حق العامل كاملا في وقته المناسب . وزيادة هذا الحق بما
يتناسب واتساع الجهد الذي يبذله العامل ، ورفع العلاقة بين العامل
وصاحب العمل الى مستوى الاخوة والتعامل المشترك في الطعام واللباس . .
ليس ثمة نظام كهذا يتاح فيه – لو نفذت تعاليمه في عصر صناعي على
سبيل المثال – ان تنمو وتترعرع الاخلاقية الرأسمالية الجائرة والطبقية
المقته . ثم ان هذه التعاليم وغيرها كثير ، تعد في الوقت نفسه سببا في
عدم وصول المجتمع الاسلامي الى مرحلة الرأسمالية . بمفهومها الكامل ،
رغم ما قدمته له حضارته من معطيات في ميادين التكنولوجيا والعلوم
التطبيقية ، لان اخلاقية المسلمين التي صنعها دينهم وصاغها رسوله «ص»
تقف حائلا دون هذا المصير حتى لو لم تجيء «الحروب الصليبية» و«الغزو
المغولي» لكي تدمر حيوية الحضارة الاسلامية وتنقل البندول الى عالم
الغرب .

وليس ادل على اهمية العمل في نظر الاسلام ، وانه وراء القيمة
الحقيقية للانتاج من موقف القرآن والسنة الحاسم المعروف ازاء العمليات
الربوية بكل اشكالها التي لا محل لعرضها هنا ، ومن الاحاديث الشريفة
التي وردت عن مسألة الارض والزراعة وانها لمن « يزرع » لا لمن « يملك » ،
وان الذي يعمل في الارض التي لا يملكها احد ، احق بها ، ونحن نجتزئ
منها بهذه الاحاديث : عن عائشة «رض» ان النبي «ص» قال «من اعمر
ارضا ليست لاحد فهو احق بها» . وعن رافع بن خديج ان النبي «ص»
نهى عن كراء المزارع . وعن جابر بن عبد الله ان رسول الله «ص» نهى
ان يؤخذ للارض اجر او حظ . ويقول «ص» «عادي الارض لله والرسول

ثم لكم ، فمن احيا ارضا ميتة فهي له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » . ويقول « من كانت له ارض فليزرعها او ليمنحها » . وكان رسول الله «ص» قد اعطى بلالا بن الحارث المزني جميع ارض العقيق ، فلما كان زمن عمر قال لبلال : ان رسول الله «ص» لم يقطعك لتحجره عن الناس ، انما اقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي .

ويبين المشرع الاسلامي الشهير ابن حزم القرطبي «ت ٤٥٦هـ» على هذه الاحاديث في مسألة الارض والمزارعة رايه المعروف في المحلى « ولا تجوز اجارة الاراضي اصلا لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ، ولا للبناء فيها لشيء من الاشياء اصلا . . لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولا بغير مدة مسماة ، بدنانير ودرهم ، ولا بشيء اصلا . . فمتى وقع فسخ ابدا . . ولا يجوز في الارض الا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها ، او المغارسة كذلك فقط . فان كان فيها بناء قل او كثر جاز استئجار ذلك البناء ، وتكون الارض تبعا لذلك البناء غير داخلة في الاجارة اصلا » !

وكما كانت قواعد العمل الانفة رهينة بعدم ظهور مجتمع رأسمالي على النمط الغربي كانت هذه القواعد الخاصة بالنشاط الزراعي رهينة بعدم ظهور المجتمع الاقطاعي على النمط الغربي نفسه ، لولا ان انحرف الناس في ميدان التطبيق ، بدرجة او اخرى ، عن قيم الاسلام وتعاليمه ، وهذه المسألة شيء والقول بأن الاسلام نفسه جاء لكي يعزز النمو الاقطاعي او الرأسمالي في المجتمعات البرجوازية شيء اخر يتهاافت بمجرد القاء نظرة سريعة على نظرية الاسلام نفسها .

ويتحدث الرسول «ص» «عن الثروة» ، ويبين في اكثر من موضع كيف انها ليست هدفا ولا يجب ان تكون كذلك ، والا قادت عبيدها ومستخدميها الى الدمار ، وكيف ان الموقف الصائب في التعامل معها يضعها في موضعها المناسب من فاعليات الانسان على الارض ، كوسيلة تحمله ، والجماعة معه الى ابعد الآفاق ، ويحمل على الترف والمترفين الذين

لا يعرفون حقوق غيرهم في الجماعة التي ينتمون اليها والذين يأكلون كما تأكل الانعام . يحدثنا عنهم بأسلوب ينضح بالسخرية والتنديد ويذكرنا بمواقف القرآن منهم وصوره عنهم « مما ارجو ان يكون موضوع بحث اخر » . عن ابي سعيد الخدري ان النبي «ص» جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال : « ان مما اخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . . وان مما ينبت الربيع يقتل او يلم الا اكلة الخضراء اكلت حتى اذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فثلثت وبالست ورتعت ، وان هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما اعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل - او كما قال النبي «ص» وانه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة » .

وفي مقابل هذه الصورة البشعة المنفرة يطرح الرسول «ص» تلك الصورة الوضيئة المشرقة التي يحدثنا عنها ابو ذر «رض» ، هذا الصحابي الجليل « كنت امشي مع النبي في حرة المدينة ، فاستقبلنا احد فقال : يا ابا ذر !! قلت : لبيك يا رسول الله !! قال : مايسرنى ان عندي مثل احد هذا ذهبا ، اموت وعندي منه دينار الا ان اقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ، ثم مشى فقال : ان الاكثرين هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا ، وقليل ما هم » .

ولا يعني هذا ان الرسول «ص» كان يحب الفقر او يدعو اليه ، ابدأ . . لان هذا الموقف يتناقض اساسا مع نظرية الاسلام عن دور الانسان الايجابي البناء في العالم ، كما يتناقض مع فلسفة العدل الاجتماعي الاسلامي القائمة على ضرورة اشباع حاجات الانسان الاساسية واسعاده وتمكينه من دوره . بل انه يتناقض بالكلية مع مواقف الرسول «ص» نفسه ازاء الفقر كظاهرة اجتماعية سلبية شاذة ومرض فتاك . . من ثم كان الرسول «ص» يساويه بالكفر كظاهرة تتميز - هي الاخرى - بالشذوذ والمرضية

على كل المستويات ، كان يستعيز منهما على السواء . . كان يقول « كاد الفقر ان يكون كفرا » واني للجائع ان يرتفع بأشواقه ووجدانه الى السماء ، ويناجي الله على مكث ويتأمل في ملكوت السماوات والارض وامعاؤه تتقطع الما ومسغبة وجوعا ؟ ! وكان «ص» يدعو الله « اللهم اني اعوذ بك من الكفر والفقر » فقال رجل : ايعذلان ؟ اجاب الرسول نعم ! !

وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية الايجابية المتينة العميقة التي تربط بين افراد المجتمع المسلم الواحد ، وتسوسهم بمنطق التكامل ، وتجعلهم كالبنين يمنحنا الرسول «ص» مزيدا من القيم والتعاليم . . عن عبد الله بن عمرو ان رجلا سأل رسول الله «ص» اي الاسلام خير ؟ قال «تطمع الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وعن انس عن النبي «ص» قال «لا يؤمن احدكم حتى يحب لاختيه ما يحب لنفسه» «لا يؤمن» بهذا الجزم ! ! . . . والمحبة ليست عواطف تمنح فحسب ، بل انها عطاء وتضحية ونبل وإيثار والا فلن تستكمل ابعادها ابدا . والحديث التالي يسلط اضواء اكثر على المسألة : عن ابي موسى ان النبي «ص» قال : «على كل مسلم صدقة . فقالوا : يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا : فان لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا : فان لم يجد ؟ قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فانها له صدقة .»

ويصور الرسول «ص» في حديث اخر المسؤولية الاجتماعية المشتركة الملقاة على عاتق المسلمين جميعا في المسير بالجماعة الى بر العدل والخير والامان قال « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فاصاب بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها فكان الذين في اسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! ! فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا » من اجل ذلك قال الرسول «ص»

في حديث آخر «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاء ومن ثم فان اي خلل يصيب البناء الاجتماعي يجيء بمثابة علامة خطر اكيدة في مسيرة الجماعة الاسلامية كلها فان تداركوا الخلل نجوا والا فان البناء سيتصدع والمركب سيستقر بهم في الاعماق ! »

وتقودنا قضية (الترابط الاجتماعي) هذه الى مسألة من اهم مسائل العدل الاجتماعي في الاسلام تلك هي التكافل الاجتماعي الذي تأمر به الدولة ، او تقوم به الجماعة تطوعا واختيارا . ومن وراء الدولة والجماعة احاديث وقيم طرحها الرسول على طول حياته المديدة بين مكة والمدينة متدرجا واصحابه بين (الزكاة) كحد ادنى من العطاء مفروض على المال وبين الاشتراك الكامل فيه ، مروراً (بالتصدق) الذي لا حد له والذي يتراوح هو الآخر بين الكلمة الطيبة والدرهم والدرهمين ، وبين التنازل الكامل عن المزارع والاراضي والممتلكات والاموال .

عن ابن عمر ان رسول الله قال (امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فان فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم - الا بحق الاسلام - وحسابهم على الله) . وعن ابن عباس ان النبي (ص) بعث معاذاً الى اليمن فقال له (ادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله ، واني رسول الله ، فان هم اطاعوا لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة في اموالهم تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم) وفي مقابل هذا قال (ان في المال حقا سوى الزكاة) . ونذكر بهذا الصدد ما قاله الامام الغزالي في المستصفى (اذا خلت ايدي الجند من الاموال ولم يكن من مال المصالح - بيت المال - ما يفي بخراجات العسكر ، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد المسلمين ، او ثوران الفتنة من قبل اهل الشر ، جاز للامام ان يوظف على الاغنياء مقدار كفاية الجند . .) وما قاله الشاطبي معلقا على ذلك (وقد نفذ هذا في زمن الدولة الاسلامية ، ومن ذلك في عهد الملك قطز لرد التتار بناء على

فتوى سلطان العلماء العز بن عبدالسلام رحمه الله (واتفق العلماء انه اذا نزلت بالمسلمين حاجة - بعد اداء الزكاة - فانه يجب صرف المال اليها)، وما قاله الامام مالك (يجب على الناس فداء اسراهم وان استغرق ذلك اموالهم ، وهذا اجماع ايضا) .

ويمضي رسول الله (ص) متحدثا عن المسألة من اكثر من زاوية قال : (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم) ، وقال (ايما اهل عرصة اصبح فيهم امرؤ جائعا برئت منهم ذمة الله ورسوله)، وقال (اذا بات مؤمن جائعا فلا مال لاحد) .

وتعليقا على حديث اخر بهذا الصدد وهو (المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) يقول ابن حزم في كتابه المحلى ، باب الزكاة ، «من تركه يجوع ويعرى فقد اسلمه، ويضيف ان للجائع عند الضرورة ان يقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره «فان قتل الجائع فعلى قاتله القصاص، وان قتل المانع فالى لعنة الله!!» ويستطرد ابن حزم قائلا: «... وفرض على الاغنياء من اهل كل بلد ان يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك، ان لم تقم الزكوات. بهم ، ولا في سائر اموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ومن اللباس في الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » . وهو يروي حديث الرسول (ص) (من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام اربعة فليذهب بخامس أو سادس)!!

وفي اكثر من مرة يعلن الرسول (ص) عن تعهد الدولة للمفقراء والضعفاء والعاطلين والعاجزين (من ترك كلا - اي ذرية ضعيفة - فليأتني فانا مولاه) (من ترك ضياعا فعلي ضياعه) (وما من مؤمن الا وانا اولى به في الدنيا والاخرة) . وفي حديثه الشهير (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته . . يعلن (ص) مسؤولية الحاكم او الدولة الاسلامية عن كافة رعاياها ، مسؤولية شاملة ، ولم يستطع احد

ان يقول ان للحاكم او الدولة الا تعتبر نفسها مسؤولة عن اولئك الذين يموتون جوعا ولا يقدرّون على ممارسة ادوارهم الطبيعية في الحياة لانهم قد اخرجوا بالفقر والجوع والحرمان عن مواقعهم الصحيحة لان المسؤولية واحدة لا تتجزأ ، وهي ترد في هذا الحديث (مطلق) مسؤولية لا مسؤولية جزئية عن جانب ما من جوانب العلاقة بين الحاكم المحكوم .

ويتقدم (ص) خطوات اخرى واسعة مدهشة في مجال العدل والتكافل الاجتماعيين وصل بها الى الافاق التي ما كانت (ظروف الانتاج) ، وفق التفسير المادي للتاريخ تسمح بمجرد التفوه بها . قال (من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، وليست له زوجة فليتزوج او ليس له دابة فليتخذ دابة) . وقال (طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الاربعة) . وثمن ما كان يفعله (الاشعريون) - من عرب الجنوب - بكلمات توحى انه لم يكن يباركهم فحسب ، بل (يأمر) بتنفيذ (اسلوبهم) ايسام الازمات والمجاعات والمهمات (المشتركة) (ان الاشعريين - يقول ص - اذا ارملوا في الغزو او قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية فهم منسي وانا منهم) (اقتسموه في اناء واحد بالسوية) (فهم مني وانا منهم) تلك كلمات واشارات ما كان لها ان تقلت من بين ايدينا وتغيب عن اذهاننا حتى لو مضى عليها آلاف من السنين !! ثم ها هو الرسول (ص) يعلن في احدى الاسفار مخاطبا اتباعه : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) . ويضيف الرواة ان الرسول (ص) ذكر حينذاك من اصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لاحد منا في فضل !!

ثانيا - التجارب والممارسات الجماعية :

تبرز تجربة (المؤاخاة) المعروفة في مقدمة الممارسات الجماعية التي نفذها الرسول (ص) ، في المدينة ، اول عهد الدولة الاسلامية بالظهور

والتشكّل ، وقد أراد (ص) ان يحل بهذه التجربة (الازمة المعاشية) التسي
اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة ، مخلفين وراءهم اموالهم وممتلكاتهم ،
وينظم علاقاتهم الاجتماعية باخوانهم الانصار ، ريثما يستعيد المهاجرون
مقدرتهم المالية ويتمكنوا من بلوغ مستوى (الكفاية الاجتماعية) . فاعتمد
اسلوب المؤاخاة والمشاركة بين الطرفين فقال : «تآخوا في الله اخوين
اخوين» . وقد بلغ من تأكيد الرسول (ص) على تعميق (المشاركة) ان كان
ميراث الانصاري يؤول بعد وفاته الى اخيه المهاجر بدلا من ذوي رحمه من
الاخوة او الابناء او النساء . . واستمر ذلك حتى موقعة بدر التي حظي
فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والاموال ، مكنتهم من
الحصول على تعويض نسبي عما خسروه اثناء الهجرة ، وحينذاك انزل
الله تعالى (واولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله) ، فعاد
التوارث سيرته الاولى ، وتأكدت - بالمقابل - قاعدة اساسية اخرى من
قواعد العدل الاجتماعي في الاسلام والتي تجعل الجهد البشري يتوزع
وفق دائرة ، اكثر منطقية ، تبدأ بالاخوة والابناء ، وتتسع لكسي تضم
الوحدة الاجتماعية كلها مروراً بذوي القربى والجار ، تقديراً منه للتكوين
النفسي العميق للانسان ، وفطرته التي تميل في (العطاء) - في الاعم
الاغلب - للاقرب فالابعد .

وقد تلقى الانصار اوامر الرسول (ص) بفرح عميق ، وفتحوا قلوبهم
ودورهم لرفاقهم في العقيدة ، حتى ان الواقدي يذكر بأن الرسول (ص) لما
تحول من بني عمرو بن عوف - في قباء - الى المدينة ، تحول اصحابه من
المهاجرين فتنافست فيهم الانصار ان ينزلوا عليهم حتى اقتنعوا فيهم
بالسهمان ، فما نزل احد منهم على احد الا بقرعة سهم ، كما اعلن الانصار
انهم يهبون الرسول (ص) كل فضل في خطط بلدهم وقالوا له : ان شئت
فخذ منا منازلنا . فقال لهم خيرا ، وخط لاصحابه في كل ارض ليست لاحد
او موهوبة من الانصار .

ولما غنم المسلمون اموال بني النضير (سنة ٤هـ) دعا الرسول (ص) الانصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وانزالهم اياهم في منازلهم ، واشرتهم على انفسهم ، ثم قال «ان احببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما افاء الله علي من بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلهم وأموالهم ، وان احببتم اعطيتم وخرجوا من دوركم، فأجابهم زعماء الاوس والخزرج : يا رسول الله بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الانصار : رضينا يا رسول الله . وقابل المهاجرون ايثار اخوانهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة ، رافضين - منذ البدء - ان يكونوا اتكاليين على اخوانهم ، وعالة على اولئك الذين آوهم وقاسموهم ، وليست قصة عبدالرحمن بن عوف مع اخيه الانصاري سعد بن الربيع سوى مثل واحد من عديد من الامثلة على هذا التقابل الاخوي العادل في الاخذ والعطاء . روى البخاري ان المهاجرين لما قدموا آخى رسول الله (ص) بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لرفيقه : اني اكثر الانصار مالا فاقسم لك نصف مالي، وانظر اي زوجتي هويت نزلت لك عنها فاذا حلست تزوجتها ، فقال له عبدالرحمن : لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟ قال : سوق قينقاع . فغدا عبدالرحمن فأتى بأقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، وما لبث ان جاء وعليه اثر الـ (الزينة) فسأله رسول الله : تزوجت ؟ قال: نعم: ومن؟ قال : امرأة من الانصار ، قال : كم سقت اليها ؟ اجاب: زنة نواة من ذهب!!

لقد كان الاخاء تجربة رائدة من تجارب العدل الاجتماعي ، ضرب الرسول فيها مثلا على مرونة الاسلام وانفتاحه - في الظرف المناسب - على اشد (اشكال) العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلا ، ورد فيها ، وفق المنطق الالهي الذي لا يحابي ولا يداجي على كل القائلين بأن الاسلام جاء لكي يمثل (اصلاحا) جزئيا للمسألة الاجتماعية ، لان (العصر) الذي تصوغه

(وسائل الانتاج) لم يتح له ان يتحرك لصياغة عالم جديد من العلاقات لم تسمح المرحلة الانتاجية - بعد - بصياغته ولم تأمر بها . وسنرى بعد قليل ، عبر سني الدعوة الحافلة ، المزيد من التجارب الاجتماعية التي ترفض منطوق هذا التحليل الخارجي الصارم ، تلك التجارب التي لا تقل في دلالتها واهميتها عن تجربة (المؤاخاة) .

لقد نجحت التجربة لان الارضية التي اقيمت عليها ، والقيادة التي خططتها ونفذتها ، استكملتا كل شروط النجاح في مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الاخذ وتشده اواصر العقيدة وحدها ، ويوجهه الايمان العميق في كل حركاته وأعماله وفاعلياته ، ويوقده الرسول (الاسوة) الذي ضرب بتجرده واثيره ، وانسلاخه عن الاخذ ، وعطائه الدائم ، مثالا عاليا ومؤثرا يحرك حتى الحجارة الصم لكي تنبجس فيتدفق منها الماء . واني لتجربة كهذه ان تفشل وتتعثر والرسول (ص) يخوض مع اصحابه من الكبار والقادة تجربة الفقر والجوع في سني الهجرة الاولى ، لا يعاني كما يعانون ، بل اكثر مما يعانون ، دون ان يفكر يوما بأن يمتطي منصبه (الاعلى) ليسلك طريقا اخر غير الذي يسلكه اتباعه ، فيثرى ويفقر ، ويأخذ ويعطون ، ويشبع ويجوعون . وسنرى في المقطع الاخير من هذا البحث ، الابعاد العميقة الشاملة للالتزامات الاخلاقية التي اخذ الرسول بها نفسه في هذا الميدان الخطير في حياة البشرية .

ان تجربة المؤاخاة نجحت ، وكان لا بد لها ان تنجح ما دامت قد استكملت الشروط وتهيأت لها الاسباب في القيادة والقاعدة على السواء ، وبغض النظر عن عدد الذين تأخوا عشرات كانوا ام مئات ام الالف . وبمرور الوقت اخذت الممارسات الجماعية على مستوى القيادة والقاعدة تزداد وتتنوع ، وتقدم لنا الدلائل والاشارات على رغبة الاسلام (العملية) العميقة في التسوية الاجتماعية ، متمثلة بفاعلية الرسول واتباعه ،

وبما كان يرافقها ويوازيها ويعقب عليها من آيات واوامر وبرامج يتنزل بها
الوحي من السماء وتغطي مساحات كبيرة من كتاب الله .

روى ابن سعد ان عددا ن ابناء القبائل قدموا على رسول الله (ص)
في اعقاب فتح خيبر (مطلع عام ٥٧هـ) فكلّم الرسول اصحابه فيهم ان
يشركوهم في الغنيمة ، ففعلوا . وروى الواقدي ان المسلمين لما فتحوا
حصون خيبر وجدوا هنالك متاعا وسلاحا واثاثا كثيرا «فاما الطعام والادم
والعلف فلم يخمس ، يأخذ منه الناس حاجتهم » . كما يروى ان الرسول
(ص) نادى - خلال حصار الطائف سنة (٨هـ) ان اي عبد نزل من الحصن
وخرج الينا فهو حر ، فخرج اليه بضعة عشر رجلا ، فأعتقهم وسلم كل
رجل منهم الى رجل من المسلمين يمونه ويحملة . ويروى ايضا ان الرسول
(ص) استقرض في اعقاب فتح مكة مبلغ ثلاثين ومائة الف درهم من عدد
من سكان مكة وقسمها بين اصحابه من اهل الضعف ، فيصيب الرجل
خمسین درهما او اقل او اكثر . ويروي البلاذري ان يهود فندك صالحوا
رسول الله (ص) على نصف الارض ، فكان يصرف ما يأتيه منها على ابناء
السبيل . وفي رواية اخرى له عن ابيص بن جمال انه استقطع رسول الله
(ص) الملح الذي بمارب فقال رجل : انه كالماء العد (اي الجاري) فأبى
الرسول ان يقطعه اياه . وعن عبدالله بن هشام انه كان يخرج الى السوق
فيشتري الطعام فيلقاه ابن عمر وابن الزبير فيقولان له اشركنا !! فان
النبي (ص) قد دعا لك بالبركة ، فيشركهم ، فربما اصاب الراحلة كما هي ،
فبيعت بها الى المنزل .

وفي انساب الاشراف ان رجلا من بلقين قال : اتيت رسول الله (ص)
وهو بوادي القرى ، فقلت : يا رسول الله لمن المغنم ؟ قال : لله سهم ولهؤلاء
اربعة اسهم . قلت : فهل احد احق بالمغنم من احد ؟ قال : لا ، حتى السهم
يأخذه احدكم من جنبه فليس بأحق به من احد . وعن ابي بكر الصديق
(رض) قال : « سمعت رسول الله (ص) يقول انما هي - اي فذك - طعمة

اطعمنيها الله حياتي ، فاذا مت فهي بين المسلمين » . وقال عمر بن الخطاب (رض) «كان للرسول (ص) ثلاث صفايا ، فكانت بنو النضير حبسا لنوائبه وكانت فدك لابن السبيل ، وكانت خيبر قد جزاها ثلاثة اجزاء ، فجزءان للمهاجرين ، وجزء كان ينفق منه على اهله ، فان فضل رد على فقراء المهاجرين » . وليس هذا التأكيد في التوزيع على (المهاجرين) سوى محاولة من الرسول (ص) لاعادة (التوازن الاجتماعي) بينهم وبين الانصار هذه المحاولة التي بدأت بمواخاتهم مع رفاقهم الانصار ، ثم تطورت بمنحهم مزيدا من فرص الحصول على المال لكي يبلغوا مرحلة الكفاية . ويتمكنوا من مواصلة نشاطهم الاجتماعي والعائدي على السواء .

وليست مسألة توزيع اموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين ، وحجبها الا عن قلة من الانصار ، الا استمرارا على ذات الطريق . . . وقد قدم القرآن الكريم ، من خلال هذه التجربة بالذات ، موقفه الحاسم ازاء التوازن الاجتماعي عندما قال (كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) لكن هذا لم يمنع الرسول (ص) - تمشيا مع المبدأ نفسه - من منح الانصار ، ما دعت احوالهم المعاشية الى ذلك . وفي رواية لابي سعيد الخدري ما يوضح ذلك حيث يقول «ان ناسا من الانصار سألوا رسول الله (ص) فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده فقال : ما يكون عندي من خير فلن ادخره عنكم » (وانظر : دراسة في السيرة ، فصل دولة الاسلام في المدينة للمؤلف) .

ومن المتفق عليه ان الرسول (ص) حمى ارضا بالمدينة يقال لها « النقع » لترعى فيها خيل المسلمين . وكان لسمرة بن جندب نخل فسي بستان رجل من الانصار فكان يدخل عليه هو واهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الانصاري الى الرسول (ص) ما يلقيه من سمرة ، فطلب الرسول منه ان يبيعه او يقلعه ، فأبى فقال له الرسول (ص) : انت مضار ، وقال للانصاري: اذهب واقلع نخله . وكان الصحابة في عهد الرسول (ص) يأتي كل واحد

من اصحاب النخيل بالعذق عند جذائه . ثم يعلقه على باب المسجد ، يأكل منه من يشاء . وحدث في عهد رسول الله (ص) ان كان ابو عبيدة بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من اصحاب الرسول (ص) ففني زادهم ، فأمرهم ان يجمعوا ازوادهم في مزودين وجعل يقوتهم اياها على السواء . وجاء رجل الى رسول الله فقال : يا رسول الله ، اني تزوجت امرأة من الانصار فسأله : على كم تزوجتها ؟ قال ، على اربع اواق . فقال النبي : عسى اربع اواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ما عندنا ما اربع اواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى ان نبعثك بعثا تصيب منه . وفي خطبة الوداع اصدر الرسول (ص) امره بالغاء الديون الربوية وقال « ان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله انه لا ربا ، وان ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله ، . ولقد جاءت الخطوة بلا ريب لمصلحة الفقراء الدينين .

وعن ابن عمر قال : لقد اتى علينا زمان وما احد احق بديناره ودرهمه من اخيه المسلم . وعن ابي هريرة ان الانصار قالت للنبي اقسم بيننا وبين اخوتنا «المهاجرين» ما نملكه من النخيل ، قال : لا . فقالوا لآخوانهم المهاجرين : تكفوننا المؤونة ونشرككم في التمرة ، قالوا : سمعنا واطعنا . وأراد النبي (ص) ان يقطع لبعض الانصار اراضي مواتا في البحرين فأبوا الا ان يكتب لآخوانهم من المهاجرين بمثلها . فلم يفعل النبي ذلك ، اذ لم تكن هناك اراض موات غير التي اراد اقطاعها للانصار .

ولن يستطيع المتعمن ان يمر على الوقائع الآتفة دون ان تستوقفه بعض دلالاتها : ابناء القبائل وهم يطلبون من النبي (ص) ان (يشركهم) في غنيمة اصحابه ، وطعام خبير الذي ترك للمسلمين كافة يأخذ منه (كل حسب حاجته) ونداء الرسول (ص) الى عبيد الطائف ان يغادروا اسيادهم لكي يحرروا ، وتوكيل كل منهم الى رجل من المسلمين يموه ويحمه ،

واستقراض الرسول (ص) مبلغا ضخما من المكيين لكي يوزعه - دون مقابل - على اتباعه الفقراء ، و(اشترك) ابن عمرو بن الزبير فسي طعام الرجل الذي دعى له الرسول (ص) (بالبركة) . ووقف «المنفعة» التي تغلها اراضي فدك وخيبر على ابناء السبيل والفقراء ، وتركه ملح مأرب «مشاعا» بين الناس ، وتوزيعه فيء بني النضير على فقراء المهاجرين وحجبه عن الانصار الا من كان من ذوي الحاجة منهم ، ومنحه المال لاولئك الانصار الذين كانوا كلما سألوه لم يرد لهم طلبا بعبارة واضحة لا تحتمل لبسا ولا غموضا (ما يكون عندي من خير فلن ادخره عنكم) .

ثم اننا نجد في تعقيبات الرسول (ص) على مواقف وممارسات اصحابه الجماعية ، ومباركته لمبدأ «العطاء» وفق المدرج الاسلامي القائم على الاقرب اولا كيلا تترك اية ثغرة في بنيان المجتمع ، وتأكيده العميق على ضرورة احداث التوازن بين كتل الجماعة الاسلامية وتحقيق المساواة العادلة في صميم علاقاتها ، سيما في اوقات الازمات الاجتماعية والكوارث العامة .

ونحن هنا نجتزئ باثنين منها فحسب ، لان مواقف الاصحاب كثيرة متنوعة لا يحتملها مقال كهذا ، فضلا عن ان معظمها معروف يمكن الرجوع اليه بمجرد استعراض ادوارهم الاجتماعية والعقائدية في كتب التراجم . عن انس بن مالك قال « كان ابو طلحة اكثر الانصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان احب امواله اليه ببرحاء : فلما انزلت هذه الاية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . . .)

قام ابو طلحة فقال : يا رسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول (لن تنالوا البر . . .) وان احب اموالي الي ببرحاء ، وانها صدقة لله ارجو برها ونذرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث اراك الله ، فقال رسول الله : بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت واني

ارى ان تجعلها في الاقربين فقال ابو طلحة : افعل يا رسول الله . فقسمها
ابو طلحة في اقاربه وبني عمه ، •

وعن ابي موسى الاشعري قال : قال رسول الله (ص) ، «ان الاشعريين
اذا ارملوا في الغزو او قل طعام عيالهم بالمدينة . جمعوا ما كان عندهم
في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اثناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا
منهم » !! (اقتسموه في اثناء واحد بالسوية) !! (فهم مني وأنا منهم) !!
مرة اخرى تلك تعقيبات على الموقف ما كان لها ان تفلت من بين ايدينا
وتغيب عن اذهاننا حتى لو مضى عليها الالاف من السنين !!

ثالثا - الالتزامات والممارسات الاخلاقية :

تأخذ تجربة العدل الاجتماعي في الاسلام ، من بين سائر المذاهب بعدا
اخلاقيا واقعيا يلعب دورا حاسما في (تنفيذ) التجربة و«حمايتها» من
الاستغلال والتزييف والتزوير . ويستمد هذا البعد قوته وقدرته على ان
يشق طريقه في قلب الوقائع ، من المسؤولية الدائمة التي يلقيها الاسلام
على عاتق المسلم ومن يقظة ضميره الديني . ومن احساسه الابدبي برقابة
الله سبحانه على كل خطوة يخطوها وعمل يمارسه كبيرا كان ام صغيرا
ظاهرا كان ام باطنا . . . والمسلم اما ان يكون مسؤولا ، يقظ الضمير ،
شاعرا بالوجود الالهي الدائم في حياته او ان لا يكون مسلما على
الاطلاق . . من ثم فأننا عندما نتكلم عن البعد الاخلاقي فأنما نعني به
اولئك المسلمين الذين يرون هذه المسائل الاساسية في حياتهم من بدايات
ايمانهم ، ويعتقدون ان الخروج عنها بارادة وتعمد مسبقين يمثل خروجا
على متطلبات الدين ومروقا عن معالم الايمان .

ومهما طرحت النظريات الاجتماعية الوضعية من حمايات اخلاقية
لبرامجها ، ورسمت قيما مثالية تحميها من التبديد والاستغلال والتميع ،
فان هذه « الحمایات » ، و« تلك » القيم لا تعدو ان تكون نظريات معلقة في

عالم المثال ما دامت لا تمتلك القوة «الداخلية» المركزة في اعماق الانسان لكي تحولها الى ممارسات وسلوك تحرسها المسؤولية وتعمقها يقظة الضمير وتحركها رقابة الله الدائمة صوب الاحسن والاكمل . . من ثم كانت هذه البرامج عرضة دوما للخيانة والمروق وكان المنتمون اليها نهبا للازدواجية الخطيرة بين النظرية والتطبيق ، بين الشعارات والتنفيذ ، وبين الواقع والمثال . وما اكثر ما جرت تلك الخيانة وهذه الازدواجية والالام ، ليس فقط ازاء جماهير الناس التي مورست معها ، ولكن - وهذا هو الاخطر - ازاء المذهب او النظرية وازاء ثقة «الاتباع» بقدرة «القادة» على التنفيذ المخلص الامين .

ان القضية في اساسها قضية «اخلاقية» ، فالمبادئ التي تأتي من فوق ، من خارج كيان الانسان ووجوده وفطرته ، دون ان تجد سنداً من العقيدة والاخلاق والضمير في اعماق الانسان نفسه ، لا تفعل فعلها في «تحويل» ذلك الانسان الى تعبير حي عن مبادئه . . الى وجود عقائدي متحرك متوحد بين الفكرة والتجربة ، بين الذات والموضوع ، بين الوسيلة والهدف .

ان الاسلام وحده ، ذلك الدين القيم ، هو الذي يفرس مبادئه في ارض حية من الضمير والاخلاق . . كل انسان مسلم بحق هو عقيدته الحية تمشي على الارض وتتفاعل مع الحياة وتتحرك في الواقع المعاش . . ليس ثمة مجال للتناقض بين المبادئ والاشخاص ، بين القول والعمل ، بين التوجيه والتنفيذ ، وبين الفكرة المقولة والتجربة المعاشة . ان الرسول (ص) يحدثنا فيما يرويهِ ابو هريرة ، كيف انه سيأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما اخذ منه امن الحلال ام من الحرام . . انه يريد ان يبين لنا كيف ان الاسلام يسعى الى ان يركز اخلاقية العدل الاجتماعي في الاعماق . ان بدون هذه لا تستطيع اشد القوانين صرامة واكثر السلطات ضبطاً ان تمنع الكسب الحرام والتعامل الحرام والاستغلال الحرام غشا

وسرقة ورشوة وابتزازا واستنزافا في الاسواق السود وركوبا للمناصب
من اجل امتصاص دماء الناس وعرقهم ودموعهم .

والحفاظ على اخلاقية (التزام الحلال) في علاقاتنا الاجتماعية مسألة
غاية في الصعوبة لان وقودها يجب ان يكون محتسرق دائما : شعورا
بالمسؤولية ويقظة في الضمير ، يفجرها الاحساس الدائم برقابة الله التي
لا تند لحظة . . من ثم يغدو هذا الجهد ذو البعد النفسي (جهادا) قاسيا
يمنع الانسان المسلم من ان ينحرف بدرجة او اخرى صوب (الحرام) ذلك
الموقف الذي هو ضد بدايات العدل الاجتماعي اساسا ، ومن ثم كان
الرسول (ص) يقول (طلب الحلال جهاد) وهو يرى ما يستلزمه من ارادة
لا يثنىها اغراء عن المضي في الطريق الى نهايته .

ان ثمة صورا رائعة ، مجيدة ، يعرضها تاريخنا ، عن اولئك المسلمين
الرواد الذين لم يعرفوا اليمين ولا اليسار ، ولا الديالكتيك ولا الحتميات
التاريخية ، ولكنهم عرفوا كيف تكون العدالة الاجتماعية بأعمق مفاهيمها
وأسمى اخلاقياتها والذين بايعوا رسولهم العظيم على تحمل مسؤوليتها
حتى النهاية .

كثيرون من الصحابة الكبار كانوا في جاهليتهم يملكون القصور
والاموال والضياع ، وعندما اعلنوا اسلامهم تنازلوا بكل تجرد عن
قصورهم واموالهم وضياعهم ليعيشوا فقراء محرومين من اجل قضيتهم
الكبرى . . . كثيرون منهم بلغوا اسمى المناصب ولكنهم لم يخونوا الامانة
ولم ينسوا يوما الامة المسلمة ولم يغفلوا لحظة عن تجاربها الزاخرة
بالسراء والضراء .

ابو بكر (رض) وهو ينفق في سني الدعوة الاولى في مكة ثمرة كدحه
وكده عبر عمر حافل نشيط طويل . . اربعين الف درهم . . وعندما يسأله
رسول الله (وماذا ابقيت لعيالك ؟) يجيب الصديق (ابقيت لهم الله ورسوله) .
وعندما توليه الامة منصب الخلافة يفرض له صاحبها الكرام راتب سنويا

محددا قدره مائتان وخمسون ديناراً ، ولما لم يجدها تكفي لكي يعيش وعياله الكثيرون عيشة متوسطة يطلب اليهم ان يزيدها والا عاد الى ممارسة التجارة التي اتقنها . . فلا يزيده مبلغ (الخمسين ديناراً) الا بعد نقاش طويل ، وقرار من جماهير المصلين في مسجد المدينة . ويبقى دار الخليفة ، فاتح العراق والشام ، بسيطاً متواضعاً في ناحية السنح باطراف المدينة ، يغدو ويروح اليه كل يوم في اعقاب عمل متواصل حتى صلاة العشاء ، على بغلته التي كانت له قبل ان يتولى الخلافة . . وكما اشتته زوجته صنفاً من الطعام فلم تقدر على (اشباع) رغبتها ، ان لم يكن لديها ما يعينها على ذلك .

وعمر بن الخطاب لا يبيع لنفسه - بعد تسلمه الخلافة - من الطعام والكساء اكثر مما لاي فرد من عامة المسلمين . لانه لم يكن يرى ان له بسبب الخلافة حقاً يزيد على ما للمسلمين من حقوق في المال ، فلما جاء عام الجوع وأصاب المنطقة قحط شديد . أقسم الا يذوق السمن ويأكل طيباً حتى يفتح الله على المسلمين . . وبقي عامه على هذا الحرمان والمسلمون يرون حاله فيشفقون عليه من الجهد الذي يبذله ، حتى بسر وجهه من اكل الزيت مع قلة الطعام الذي يتناوله ورداءته ، حتى لقد ذكر احد الصحابة بالحرف (كنا نقول : لو لم يدفع الله عام الرمادة لظننا ان عمر سيموت هما بأمر المسلمين) . . ويرجوه اصحابه ان يراف بنفسه ويشفقون عليه من الجهد الذي يبذله ، ويبيحون له - عن طيب خاطر منهم - ان يأخذ من بيت المال ما يصلح به شأنه ، ولكنه يرفض ذلك ويصر على رفضه الحاسم قائلاً : وكيف يعنيني امر الرعية اذا لم يمسنى ما يمسه ؟ انه هنا يقدم لنا شعاراً اجتماعياً ، هو جوهر العدل الاجتماعي وروحه الاصيل . . شعاراً لا تفسره الكلمات ، انما (موقف) عمر نفسه وهو (يعاني) مع امته من اجل ان يعمق اهتمامه بمآسيها ومتاعبها واحزانها . وكان (رض) يحذر اهله وأقرباءه قائلاً « لا اعلم ان احدا منكم وقع

في شيء مما نهيت عنه الا ضاعفت له العقوبة » ولقد ظل حتى النهاية عند كلمته تلك رغم ما جرعته اياه من آلام والحقت به من خسائر مادية ونفسية ، لم تكن وفاة ابنه عبدالرحمن الذي خالف عن امره في مصر ، سوى واحدة منها . . وكان يصادر كل ربح يكسبه احد افراد أسرته من التجارة او الرعي فيضع الربح في بيت المال ويرد المال الى صاحبه ، تخوفا من الشبهات ! !

وعثمان بن عفان يرى المسلمين وقد تقطعت مواردهم في ايام ابي بكر ، ووقعوا في ضائقة اقتصادية قاسية ، ثم ما تلبث قافلته ان تجيئه ببضائع جمّة كان قد استوردها من الشام ، فيسرع اليه تجار المدينة يتقدموا اليه بعروضهم السخية لكنه يرفض ويعلم لهم انه قد تركها خالصة لفقراء المسلمين يرد بها عنهم غائلة الجوع . ثم هو - بعد الخلافة - ينام في اطراف المسجد ، متوسدا جيبته ، ثم يقوم واثار الحصى في جنبه ، فيقول الناس هذا عثمان بن عفان ، هذا امير المؤمنين . وقال عبد الله بن شداد « رأيت عثمان يوم الجمعة يخطب ، وهو يومئذ امير المؤمنين ، وعليه ثوب قيمته اربعة دراهم او خمسة » ! ؟

وكان كما يحدثنا الحسن البصري « يطعم الناس طعام الامارة ويأكل الخل والزيت » . . . اذا قدرت الجماهير يوما ان تحظى بمسؤولين يأكلون الخل والزيت ويطعمون الناس طعام الامارة فان لنا ان نقول ان العدل الاجتماعي قد نفذ فعلا ! !

وعلي بن ابي طالب (رض) يلتزم في خلافته الجانب الاصعب من الحياة حرصا على اموال المسلمين ، ويقول احد معاصريه « دخلت على علي في الكوفة وهو يرتجف تحت سمل وقطيفة ، فقلت : يا امير المؤمنين ان الله تعالى جعل لك ولاهل بيتك نصيبا وانت تصنع بنفسك ما تصنع ؟ فقال : والله ما ارزؤكم في مالكم شيئا ! ! » .

صور كثيرة متلاحقة لا يحصيها عد ، مئات من الصحابة المسلمين
الرواد وقفوا مواقف كهذه ، وصمموا على البقاء حتى النهاية مع ابناء
الامة التي منحتهم ثقتها ومقدراتها .

ولنا بعد هذا العرض الخاطف ان نجيء الى « المعلم » الذي تلقى
عنه الاصحاب تعاليم العدل الاجتماعي ، وهي لم تجيء على يديه مجرد
دساتير وخطبا وكلمات ونظريات علمية ، ولكنها جاءت سلوكا وممارسة
وتجربة وعملا وواقعا معاشا . ونقف بعض الوقت لكي نتتبع تفاصيل حياة
النبي اليومية الذي يكاد بعض المؤرخين المحدثين ان يتهمه بالبرجوازية .
كيف كان يأكل ويشرب ، وكيف كان يلبس وكيف كان ينام ، وأهم من هذا
كله ، كيف كان يتعامل مع « المال » . . ولا اظننا بعد هذا بحاجة الى اي
تعليق ! !

سئلت عائشة (رض) كيف كان رسول الله في بيته ؟ اجابت : « كان
بشرا كالbشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه » كما قال (ص) : « انا
اجلس كما يجلس العبد وأكل كما يأكل العبد » . كان يجلس على الارض
ويوضع طعامه على الارض . كان قدحه من خشب غليظ مضرب بحديد .
كان اذا سقى اصحابه شرب اخرهم . واذا لم يجد الطعام صبر حتى انه
ليربط على بطنه الحجر من الجوع . كان يعمل في حفر الخندق يوم غزو
الاحزاب ، فرأى صحابته الحجر على بطنه من شدة الجوع . وكان يمر
عليه الشهر لا يجد ما يخبزه » ولكن كان لنا جيران من الانصار - تقول
زوجته عائشة - نعم الجيران كانوا يهدوننا بعض الطعام « ولو كان لنا
مصباح - تقول عائشة ايضا - لاكلنا زيتة ! !

صلى مرة جالسا من شدة الجوع . قدموا له عصير اللوز فقال :
اخروه عني هذا شراب المترفين . لم يكن لديه قط قميصان معا ولا رداءان
ولا ازاران ولا نعلان وأهدي اليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى
تمزقا ، وحج في قطيفة لا تساوي اربعة دراهم . كان يلبس الصوف

- ارخص شيء وقتها - ويخفف النعل ويرقع القميص ويركب الحمار ، وكانت له حصيرة ينام عليها ، ويبسطها في النهار فيجلس عليها . . نام عليها حتى اثرت في جنبه وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف ، و احيانا ينام على عباءة تثنى مرتين ، فطوتها زوجته حفصة اربع مرات ، فلما نام عليها كان من لينها ورفاهيتها ان استغرق في النوم حتى فاتته صلاة الليل، فنهى حفصة عن ذلك وأمرها ان تعيد العباءة الى وضعها الاول . و رأت امرأة من الانصار ما ينام عليه فأهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف ، فأمر عائشة بأن تردّها ، قالت « فلم أردّها حتى امرني ثلاث لاني كنت احب ان يكون في بيتي مثل هذا » ! ! « عن هذه النقطة انظر بالتفصيل : جلال كشك : الحق المر » .

دخل عليه عمر (رض) يوما فراه على حصير قد اثر في جنبه ، ورفع رأسه في البيت فلم يجد الا اهابا معلقا وقبضة من شعير وحصيرا تكاد تبلى فبكى عمر ، فقال له : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبي الله مالي لا ابكي وهذا الحصير قد اثر في جنبك ؟ وهذه خزانك لا ارى فيها الا ما ارى ، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والانهار ، وانت نبي الله وصفوته ؟ فقال (ص) : أفى شك انت يا ابن الخطاب ؟ ! اولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ! !

في احد الايام الاولى للهجرة ، ايام الجوع والفقر والمسغبة ، يلتقي (ص) في احد ازقة المدينة بجماعة من اصحابه ، تكسو وجوههم الصفرة ، ويطوي اجسادهم العناء وقلة الطعام ، يشتكون اليه من الجوع ، ويكشفون عن بطونهم التي يشد كل منهم عليها قطعة من حجارة ليستكت جوعتها ، فيبتسم الرسول (ص) ولا يعزيهم بالكلمات ، فالكلمات في ساعات الجوع الكافر لا تغني ولا تطعم ، يكشف لهم بطنه فاذا به قد شد عليها قطعتين من الحجارة الصماء ! !

قال : اني اتزوج النساء ، واكل اللحم واثام وأقوم وأصوم وأفطر ،

فمن رغب عن سنتي فليس مني . . فلا يتصورن احد ان الرسول فسي موافقه التي نعرضها هنا كان يدعو الى الزهد والفرار . . وناداه رجل يا سيدنا وابن سيدنا فقال : لا يستهوينكم الشيطان ، انا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله والله ما احب ان ترفعوني فوق منزلتي . وكان اصحابه اذا راوه قادما عليهم لم يقوموا اليه ، وهو احب الناس اليهم ، لما يعرفون من كراهيته لقيامهم وكان يكره ان يمشي اصحابه وراءه ، ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه الى السير بجانبه . رآه رجل فارتعد ، فقال رسول الله (ص) : هون عليك فاني لست ملكا ، وانا ابن امرأة كانت تأكل القديد . . ما كان يغلق دونه الابواب ، ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح عليه بها . . كان من اراد مقابلة نبي الله يقابله ! ! (انظر : جلال كشك : الحق المر) .

ونعود مرة اخرى الى طعام رسول الله (ص) ما دام بحثنا هذا ينصب بالدرجة الاولى على مسألة «الطعام» كحاجة اساسية . روى البخاري ان انس ابن مالك قال : ما اعلم النبي (ص) رأى رغيفا مرققا حتى الحق بالله ، ولا رأى - في بيته - شاة سميطا بعينه قط . وعن عائشة قالت : انا كنا لننظر الى الهلال ، ثلاثة اهله في شهرين ، وما اوقدت في ابيات رسول الله نار . فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ اجابت : الاسودان ، التمر والماء . وقالت (رض) : لقد توفي رسول الله (ص) وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رف لي ! ! وعن انس قال . . ما اعلم النبي (ص) خبز له مرقق قط ولا اكل على خوان قط : وعن ابي هريرة ان رسول الله (ص) خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير . وعن عائشة قالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض . وعن انس انه مشى الى النبي بخبز شعير . . وقال : لقد رهن النبي درعا له بالمدينة عند يهودي واخذ منه شعيرا لاهله ، ولقد سمعته يقول : ما امسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب . . وعن ابي هريرة قال : كان رسول الله (ص) يؤتسي

بالتمر عند ضرام النخل فيجيء هذا بتمره وهذا من تمره حتى يصير عنده
كوما من تمر ، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر ، فأخذ أحدهما
تمره فجعلها في فيه ، فنظر اليه رسول الله فأخرجها من فيه . فقال ٠٠ أما
علمت ان آل محمد لا يأكلون صدقة ؟

وماذا عن نساء الرسول (ص) وبناته وأهل بيته ؟ اشتكت اليه فاطمة
بنته ما تلقاه من اعمال البيت من شدة وعناء وطلبت اليه ان يخدمها خادما
فرفض (ص) ذلك وقال لها : لا اعطيك وادع اهل الصفة - وهم جماعة من
الفقراء - تطوى بطونهم من الجوع . وأتى النبي بيت فاطمة ليزوره ، ثم
عدل فلم يدخل عليها ، فبعثت عليا ليسأل الرسول (ص) عن سبب عدوله
عن زيارتها فأجاب الرسول : اني رأيت على بابها سترا موشيا . . وأرى
ان ترسلي به الى اهل بيت فلان فهم في حاجة . . وأراد زيارتها مرة اخرى ،
فعاد كذلك دون ان يدخل عليها ، فأرسلت متسائلة عن سر ذلك فأجابها :
اني وجدت في يديها سوارا من فضة ! ! فبلغها ذلك ، فأرسلتهما اليه .
فباعهما وتصدق بثمرتهما على الفقراء ! !

اما نساؤه فقد اوجب الرسول (ص) عليهن - كما يقول محمد
العزالي - « ان يتحملن شدة ما كن يعرفنها من قبل . . لقد جئن اليه من
بيوتات كبيرة ، واكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة
الدافقة ، أما مع ابائهن واما مع رجالهن السابقين ، فلا عجب اذا تمللن
من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة ، واجتمعن ليسألن
الرسول (ص) مزيدا من النفقة تتزعمهن عائشة بنت ابي بكر وحفصة بنت
عمر (ص) . . . وحزن رسول الله لهذه المظاهرة . انه المسلم الاول على
ظهر الارض ، وابصار المؤمنين والمؤمنات ترنو اليه من كل ناحية ، وهو
بصدد بناء امة تشق طريقها وسط الوف مؤلفة من الخصوم المتربصين .
فاذا لم يعيش بيته عيشة المجاهد المحصور فكيف يواصل الكفاح ويكلف
الرجال والنساء من امته ان يذهلوا عن كل شيء الا السير بدينهم حتى

يبلغ مأمنه ؟ لذلك رفض النبي (ص) الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة ، وكره منهن هذا التطلع ، فقرر مقاطعتهن حتى شاع بين الناس ان النبي (ص) طلق نساءه جملة ٠٠ . وفزع ابو بكر وعمر لهذه الاشاعة ، فذهبا يستأذناه ليدخلا عليه وليتعرفا جليلة الخبر ، فلما دخلا وجدا النبي صامتا وحوله نساؤه واجمات ٠ وسأله عمر : اطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا ٠٠ الا ان جو الحزن كان يخيم على المكان ٠ فقال عمر : لاكلمن رسول الله لعله يضحك!! فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - يعني زوجته - سألتني النفقة لوجأت عنقها ! فضحك النبي حتى بدا ناجذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة ؟ فقام ابو بكر الى عائشة يؤدبها وقام عمر الى حفصة ٠ كل منهما يقول : تسألان النبي ما ليس عنده ؟ ! وهجرهن النبي شهرا ، حتى يشعرن بما فعلن ، ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب اليهن جميعا اما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته في حياته ، واما اللحاق بأهلن حيث الملابس الحسنة والمأكـل الدسمة « يا ايها النبي قل لازواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ٠ وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما » ٠ وكان هذا الدرس كافيا ليمحو اخر ما في انفسهن من رغبة لا تتجاوز المباحات المشتهاة ! فاخترن جميعا البقاء مع النبي » ٠

وماذا عن تعامله مع المال ؟

في اعقاب معركة حنين « سنة ٨ هـ » عندما راح الرسول (ص) يوزع الغنائم الوفيرة التي تجمعت لديه من جراء هزيمة قبيلتي هوازن وثقيف ، ناداه الاعراب : يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الابل والغنم ، وازدحموا عليه حتى الجأوه الى شجرة اختطفت عنه رداؤه ، فقال ردوا علي ردائي ايها الناس ، فوالله لو كان لكم عندي بعدد شجر تهامة نعماء لقسمته عليكم ، ثم ما الغيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا ٠ ثم تقدم الى بغير قريب منه

فاستل منه وبرة جعلها بين اصبعيه ، ثم رفعها وقال « ايها الناس ، والله ما لي من فيئكم ، ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم » .
ويوما خرج الرسول (ص) وصاحبه ابو ذر يتمشيان في اطراف المدينة فاستقبلهما جبل احد . قال ابو ذر : فخاطبني الرسول : يا ابا ذر قلت : لبيك يا رسول الله : قال : مايسرني ان عندي مثل احد هذا ذهباً اموت وعندي منه دينار الا ان اقول به في عباد الله هكذا وهكذا ، عن يمينه وشماله وعن خلفه . ثم مشى فقال : ان الاكثرين هم الاقلون يوم القيامة ، الا من قال هكذا وهكذا وهكذا . وقليل ما هم ! !

ومات رسول الله ! !

عن عمرو بن الحارث قال « ما ترك رسول الله (ص) عند موته درهما ولا ديناراً ولا عبداً ولا امة ولا شيئاً الا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة » ! !